

المرأة المجاهدة وعائلتها في منطقة سيدي بلعباس

«نموذج الفقير ملوكة»

د/ كريم ولد النبية

جامعة سيدي بلعباس

عائلة « الفقير ملوكة » عائلة ثورية، الأب
والأم كانا مجاهدان، شقيقاتها «الزهرة»
و«الحجلة» من المسبلات المعروفات في المنطقة
وأيضاً أخوها الأصغر «بن علي» و خاصة أخوها
الأكبر «عباس» الذي كان من المناضلين الأوائل في
المنظمة الخاصة التابعة حزب الشعب الجزائري،
ناهيك عن « خالها الشهيد حلوش بوعمران »
و«عمها المزعوم الطيب وزوجته يمينة» أيضاً ...
والقائمة طويلة.

بيد أن المحيط الخارجي لعائلة الفقير ملوكة
يلفت أيضاً انتباه الدارس لحياة هذه المجاهدة
العظيمة والمرأة المشاكسة والرافضة للوجود
الاستعماري منذ السن المبكر.نقصد طبعاً من
هذا المحيط : مدرسة ابن خلدون بحي الشعبي
القراية بسيدي بلعباس ، ثم المدرسة القرآنية
ومديرها الشيخ « القباطي » (أمين عام جمعية
العلماء في المنطقة) والمعلمة « بن سعيد أم الخير
« المجاهدة التي التحقت بالثورة في جبال المنطقة
ودون أن ننسى احتكاكها بالمجاهدة الكبيرة»
الواحدة خيرة» صاحبت ورشة الخياطة

التي كانت توظف فيها مجموعة من الفتيات الجزائريات ومنها فقير ملوكة والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الدراسة : أيهما كان أكثر تأثيراً في التحاق ملوكة بالجيش التحرير الوطني، هل هو المحيط العائلي أم المحيط الخارجي؟
لاشك أن النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة النموذجية للمرأة الجزائرية سوف تعطينا فكرة عن سرعة انتشار الفكرة الوطنية أثناء الثورة التحريرية الكبرى.

أولاً: فقير ملوكة الغذائية.

نشطت الفقير ملوكة في البداية كمسبلة إلا أنها وبعد فترة من الزمن وبطلب من أحد أقاربها وهو ابن «خالتها عمران» الانضمام إلى سلك الفداء . حينها طُلب منها اتصال برجل يسكن مدينة سيدي بلعباس إسمه " عمران محمد المدعو " كاتا محمد" يقيم في حي " فيلاج الريح" وكان لديه دكان للخضر. ذهبت فقير عنده لكنها وجدت في دكانه ابن خالتها الذي تعرف عليها بسرعة وأراد أن يختبرها وطلب منها : ما اسمك ؟ فأجابته أنا اسمي «خديجة» أي الاسم الثوري، فاطمأن الرجل وأدرك أنها يمكن أن توضع فيها الثقة الكاملة".

تذكر السيدة فقير على أن عملها كمسبلة بقي على حاله، خاصة وأنها كانت رئيسة للخلية السياسية. وأصبحت بعد هذا التاريخ أي نهاية 1957 تعمل كفدائية مع خلية المدعو " كاتا محمد". لقد أصبحت امرأة محنكة وشجاعة تعمل عملاً مزدوجاً. عند بداية عام 1958 شرع رئيس الخلية " محمد كاتا" يكشف لها المهمات السرية. في هذه الأثناء عرفها بأول مهمة حقيقية سوف تقوم بها تتمثل في عملية القضاء على أحد الخونة (الحركي) في مدينة سيدي بلعباس- المدعو : وي.ب.ن.ا.ز-ⁱⁱⁱ لقد كان لذلك الحركي دكان في حي " مونبليزير" في مدينة سيدي بلعباس (يحمل اليوم اسم حي " عبو" وكانت التعليمات التي أعطاهها محمد إلى " خديجة"iv تمثلت في إخراج هذا الخبيث من دكانه وإحضاره للجماعة بطريقة إغراقية حيلية فطلب منها رئيس خليتها أن ترتدي ملابس جميلة وتزين له لتخدعه.

فقيير ملوكة وافقت في البداية على هذه المهمة، لكنها سرعان ما تراجع عن قرارها وفضلت اتصال بفتاة أخرى تقوم بهذا الدور. لم يمضي وقت طويل حتى وجدت المرأة المناسبة لهذه المهمة. إنها فتاة تدعى "فارسي حليمة" وهي إحدى فتيات ورشة الخياطة التي كانت تعمل فيها خديجة. لقد أحضرت ملابس راقية وجميلة من عند ابنة عمها "الواحدة عباسية" صاحبة ورشة الخياطة التي تعتبر من المجاهدات الأكثر شهرة في كل منطقة سيدي بلعباس.

كانت فقيير ملوكة تعلم أن الخائن الذي كان من المفروض تطبيق الحكم عليه كان جزائراً. فطلبت من حليمة أخذ كل وقتها لتنفيذ العملية. كانت "حليمة" تذهب يوميا للشراء اللحم، ودامت هذه الحالة مدة شهر كامل حتى تتمكن من كسب ثقته وإلى حين جاء الأمر بإخراجه من قبل "سي مصطفى" المسؤول الأول عن الفدى في المنطقة الخامسة من المنطقة الخامسة. حان الوقت ذاً لتنفيذ العملية، فأعطت "حليمة" موعداً للرجل الحزكي في منزل كان بالقرب من الوادي بحي "فيلاج الريح" وأوصتها بأنها سوف تكون بجانبها حين تمر بشارع "موليار" قرب المدرسة بنفس الحي لتنفيذ الحكم. كانت هذه العملية الأولى من سلسلة فدائية في مدينة سيدي بلعباس لتنتقل بعدها فقيير ملوكة إلى العمل كمجاهدة.

ثانياً: فقيير ملوكة المجاهدة:

لقد كان صعود "الفقيير ملوكة" إلى الجبل دوافع كثيرة، ثم أن دورها كمجاهدة كان عظيماً وكبيراً. لقد كانت أمينة سر فرقة جيش التحرير، مارست عملها كممرضة وكانت المساعدة الأولى لعدة قادة في المنطقة الخامسة علما أنها بقيت الفتاة الوحيدة ضمن المجاهدين وذلك يعود لنقل كل الأخريات إلى الحدود المغربية. أكدت ملوكة أن التحاقها بالجبال راجع إلى استشهاد مجموعة كبيرة من الإخوة والأخوات منهم: خيرة الواحدة، سي بهلول محمد، دكار العيد، لطرش محمد و"سايج". لقد اتصلت بمسؤوليها المباشرين في مدينة سيدي بلعباس وهم: "سي مصطفى" و"سي منصور" و"سي خالد" وصرحت لهم أن خلتها تفككت باستشهاد البعض وإلقاء القبض على البعض الآخر فما العمل في هذه الحالة؟ فطلب منها

"سي خالد" الابتعاد والاختباء لفترة حتى لا تمكن السلطات الفرنسية من القبض عليها . حين ذلك ذهبت عند خالها الساكن بـ "دوار الرحامنة" بمزرعة "كروص" . وبقيت عند خالها لمدة شهر كامل. عندما هدأت الأمور عادت إلى منزلها وربطت الاتصال من جديد عند ذلك وصلها خبر استشهاد كل من "بهلول محمد" و"دكار العيد" ومعهم آخرون تحت التعذيب الوحشي لوححدات الفرق الإدارية المتخصصة لأصااص في المنطقة.فما كان عليها إلا استئناف نشاطها في " المنظمة السياسية النسوية" كمسبلة حيث ربطت نظامًا سرّيًا مع إحدى النساء المعروفات في مدينة سيدي بلعباس تدعى خالتي " شهينة" وكان لهذه الأخيرة متجر تبيع فيه مشتفات الحليب كاللبن بـ "حي القرابا"(حي بيجو سابقًا) وكانت تتظاهر بالشراء من عندها لتقوم بعمليات جمع الأموال والتبرعات والأدوية ونقل الاستخبارات من العدو.

في بداية سنة 1958 علمت فقير ملوكة من مصادر مقربة من مكتب لأصااص أنها أصبحت ضمن قائمة المطلوبين من قبل المكتب الثاني وأنها مراقبة وقد أصدرت في حقها مذكرة بالرغم من أن هذا المكتب لم يكن يعلم عنوانها الثابت ولا حتى اسمها الحقيقي والكامل.علمت فقير ملوكة أن السلطات الفرنسية تبحث عن امرأة مولودة في برمانتي (سيدي علي بوسيدي) لها المواصفات التالية : امرأة ذات شعر طويل أسود تضع عليه شريط أحمر ترتدي معطف أسود، تضع حقيبة يد حمراء وأحيانًا أخرى خضراء.

أكدت السيدة فقير ملوكة أن ابن خالتها " حلوش عمران" هو الذي رسم لها الطريق إلى الجبل وكان ذلك بالضبط في بداية جانفي 1958. حضر المدعو عابد^{vii} منزل ملوكة بحجة البحث على عباس فقير (أخوها الأكبر) ليسلم له استدعاء للخدمة العسكرية.وفي سرية تامة اتصل بملوكة وأخبرها بأن مسألة القبض عليها أصبحت معدودة بالدقائق ولم يكن أمامها إلا الهروب إلى الجبل.فما كان عليها عند سماعها لهذا النبأ إلا الالتحاق بإخوانها المجاهدين في المنطقة الخامسة سيدي بلعباس من الولاية الخامسة وهران.ونشطت أيضًا في الناحية الأولى منها "في وادي

الشولي " وفي الناحية الثالثة مثل وجبل موكسي وجبل اللوزة " من هنا كانت " خديجة " واحدة من بين ابرز المجاهدات البارزات في منطقة سيدي بلعباس. لقد أخبرتنا السيدة "الفقيه ملوكة" عن حياتها الثورية وأن بداية نشاطها باشرته مع رجال عظماء أمثال : "سي مصطفى" و "سي بوبكر" اللذان نفذت معهم أول عملية لها حين ذهبوا إلى منطقة " السهالة " ضواحي " سيدي يعقوب " التي تعتبر واحدة من بين القرى القريبة للجهة الغربية لمدينة سيدي بلعباس. لقد طُلب من المجاهدة " خديجة " مصاحبهم في هذه المهمة لأن " سي مصطفى" لم يكن يجيد القراءة والكتابة وطلب منها كتابة بعض المنشير^{viii} لمواجهة الدعاية الرسمية والحرب النفسية التي كانت تخوضها مكاتب لاصاص ضد مجاهدي الولاية الخامسة. وهي تتذكر أنها أمضت ليلة كلها في كتابة منشير جيش التحرير. عند حلول الفجر ذهب "سي بوبكر" إلى مهمة أخرى بعيداً عن قرية السهالة تاركا "سي مصطفى" يرتاح في المخبأ على بعد ربع ساعة وتم تكليف المجاهدة خديجة " كتابة المزيد من المنشير. في الصباح الباكر قدمت امرأة من الدوار المجاور إلى قرية السهالة لتخبر خديجة أن عساكر الجيش الفرنسي قادمون ومتوجهون إلى المخبأ الذي يوجد فيه سي مصطفى.

أسرعت خديجة لتنبيه سي مصطفى لكنها أدركت أن الأحداث تجاوزتها ولم يعد لديها حتى الوقت الكافي لمساعدة سي مصطفى الذي يبدو مصاباً برصاصة في رجله حسب شهادة خديجة (ملوكة)، حينها أدركت أن خبر وصول العسكر الفرنسيين وصلها متأخراً ويبدو أن سي مصطفى نفسه أخطأ عندما أهمل تأمين المكان الذي اختبأ فيه ليرتاح قليلاً. فما كان على خديجة إلا التحكم في أعصابها، فرجعت إلى القرية لارتداء ملابس نسائية محلية قبل أن تقوم بإحراق كل تلك المنشير التي كتبتها في تلك الليلة الحالكة. بعدها سمعت إطلاق رصاص مكثف من قبل عساكر العدو الفرنسي، فما كان على سي مصطفى إلا الرضوخ للأمر الواقع عندما تم القبض عليه.

لقد صرحت فقير ملوكة (خديجة) أنها شاهدت ix هذه العملية بمريء أعينها رفقة ثلاثة نساء من قرية السهالة حضرت الحدث أيضاً. بعد نهاية العمليات ومغادرة عساكر فرقة لاصاص قرية سهالة ، اتجهت " خديجة " إلى شاطو كروص^x ، مكان وجود كتيبة من المجاهدين وأخبرتهم عن إلقاء القبض على " سي مصطفى وما عليها الآن إلا اختباء في مكان معزول بعد تفكيك خليتها وإلقاء القبض على قائدها المباشر. اتجهت خديجة إلى سيدي بلعباس عند " حليلة فارس " القاطنة بحي " بريانطو " وغيرت ملابسها ثم توجهت إلى حي " فيلاج الريح " عند " كاتا محمد " وأعلمته بما حدث لها ويبدو أنها كانت محظوظة مرة أخرى ولم يتمكن العدو من إلقاء القبض عليها.

في أواخر سنة 1957 أعتقلت «خيرة الواحلة» مع كل من « بهول محمد»^{xi}، « دكار العيد»، «لطرش محمد^{xii}»، «سايح، المدعو»السايح الحفاف»، «نجاري خيرة»، «حفيظة سقال» و«خالد الحبيب» و«ضالع قدور^{xiii}» المدعو عبد المجيد» وتقول ملوكة بأن هؤلاء كلهم كانت لديها اتصالات معهم.

أكد لها كاتا محمد قائدها الأول: المهم أن استخبارات مكاتب لاصاص لم تتمكن لحد الآن من التحقق على هويتها واسمها الحقيقي و ذهبت برفقته عند « سي الخلادي»^{xiv} ليجدد لها مهامها ويكلفها بعمليات أخرى.

يبدو أن قصة المجاهدة فقير ملوكة المدعوة خديجة مثيرة جداً ، وتدعوا إلى عدّة تساؤلات عن دور المرأة في الثورة. لماذا كانت المرأة المجاهدة بعيدة عن القرار ؟ ولماذا كانت دائما آخر من يعلم حتى إذا تعلق الأمر بقدوم عساكر العدو ؟ بالرغم من أن كل عائلتها كانت قد انضمت إلى العمل الثوري (أبوها، زوجها، أخوها الأكبر والأصغر أخالها وعمها . . .) إلا أنها كانت لا تعلم ذلك والعجيب أنها التحقت بالثورة بفضل امرأة خارج محيط الأسرة وهي صاحبة ورشة الخياطة ؟ لماذا هذا الحذر كله ؟ هل كانت هذه المرأة الشجاعة لا تستحق الثقة في نظر أفراد عائلتها ؟ هل كان محتوماً عليها أن تبقى دائماً في انتظار أوامر الرجال ؟

حتى الطيب الذي قال أبوها أنه عمُّها ، اتضح أنه يدعى مصابيح فكيف يمكن أن يكون عمُّها وهو لا يحمل اسم فقير ؟ لقد علمت فقير ملوكة بهذه الحقيقة حين قامت سلطات مكاتب لاصاص بطرد سكان دوار برقرش وخربت كل المزارع و سجنت الرجال واحتشدت الأطفال والنساء والشيوخ في المحتشدات .حينها جاء قادة مصابيح (إبن الطيب مصابيح) عشاءً يبكي مطالبًا والد فقير ملوكة الضيافة في داره مصطحبًا معه وثائق هويته وطالبًا المساعدة.من حسن حظ ملوكة أنها كانت تعرف القراءة والكتابة. أدركت الحقيقة المخبئة عندما سلمها أبوها وثائق عائلة مصابيح طالبًا منها إخفاءها في مكان آمن.صرحت فقير ملوكة عندما أدركت الواقع : « هناك اكتشفت أن " مصابيح الطيب" لم يكن عمي كما زعم أبي ذلك وإنما هو مجاهد من جنود جيش التحرير الوطني وكان قادة هذا ابنه .قرأت لقبه في بطاقة هوية أبيه فسألته لماذا لا يوجد لقب " فقير" ما دامنا من عائلة واحدة فأخبرها أن أباه ووالدها ليس سوى صديقين فمن هنا أدركت أن منزلهم كان مركز للمجاهدين يتم من خلاله جمع الأموال والتبرعات.».

يبدو أن كل التساؤلات والفرضيات المطروحة عن مكانة المرأة ودورها صحيحة حسب ما توصلنا إليه في دراستنا عن هذا النموذج الخاص بإحدى بطلات ثورتنا المظفرة.

الإحالات

^١ - المدعو سي يوسف ولد في 02 سبتمبر 1928 بالعمارة، التحق بالصفوف الجيش التحرير الوطني 1957م وكان ضمن المسبلين ثم الفدائيين ثم المجاهدين وأحد من بين أبرز شخصيات المقاومة في المنطقة الخامسة ، استشهد في 06 جوان 1959.

^٢ - لقاء مع السيدة "الفقير ملوكة" ، يوم 15 ماي 2007م، على الساعة 16:22 ، بمنزلها بسيدي علي بوسيدي (برمانتي) ولاية سيدي بلعباس. وتقول السيدة ملوكة أن هذه المقابلة معه كانت في أواخر سنة 1957.

- iii - تم تغيير أسماء الحركة حتى لا تؤثر في حقوق عائلاتهم وحتى لا يكون هناك صراع بين الأجيال..
- iv - هو الاسم الثوري الذي عرفت به السيدة " مليكة " حتى بعد الاستقلال.
- v - لقاء مع السيدة "الفقيه ملوكة" ، يوم 15 ماي 2007م، مساءً ، في نزلها بسيدي علي بوسيدي (برمانتي) ولاية سيدي بلعباس..
- vi - نفسه.
- vii - عابد مُجَّد: من مدينة سيدي بلعباس كان يعمل مع السلطات الفرنسية إلا أنه كان منخرط مع جيش التحرير وكان يفيد الثورة بالاستخبارات وله الفضل الأكبر في هروب ملوكة قبل وقوعها في يد العدو سنة 1958.
- viii - كانت المناشير لها علاقة بالانتخابات المحلية في اطار مشاريع ديغول الخادعة.
- ix - مقابلة مع السيدة "الفقيه ملوكة" ، يوم 15 ماي 2007م مساءً ، بمنزلها.
- x - موجود حاليا في الطريق الرابط بين عين تموشنت وسيدي بلعباس.
- xi - " بملول مُجَّد " كانت تذهب عنده إلى دكانه في " القربا " وكانت تأخذ له الرسائل والمعلومات خصوصا وأنه كان يبيع " القماش " فكانت تتظاهر بشرائها للقماش باعتبارها خياطة.
- xii - " لطرش مُجَّد " تقول ملوكة أنها كانت تذهب عنده إلى البيت إذ كانا في شارع واحد وكانت تضع الرسائل في فستانها إذ تقوم بتقطيع فستانها وتضع الرسالة بين القماش ثم تعيد إخطائه وكانت عندما تصل إلى البيت تستأذن بأي حجة حتى لا يروها وهي تخرج الرسالة من فستانها وكان هذا الحذر خوفا من ثغرة أو غلطة.
- xiii - ضالع قدور: إسمه الحقيقي قدور ولد بمخالد، المدعو سي عبد المجيد ولد يوم 02 أكتوبر 1930م بسيدي يعقوب دائرة سيدي لحسن ، إنخرط منذ صغره بحزب الشعب الجزائري PPA وفي سنة 1950م، إنظم إلى المنظمة السرية L'OS .تويع من طرف شرطة الاستعلامات العامة والشرطة القضائية لمحافظة الشرطة - LALANDE MARTEAU - وكذا المكتب الثاني للعدو الفرنسي للوحدة الأولى، في 1953م كان في إتصال دائم بالرفقاء في صيرة بتلمسان (سي العربي بن مهدي - سي عبد الحميد بوسوف) وفي 1954م إتتحق بصنوف جيش التحرير الوطني نظم عدة خلايا في كل من سار - تلموني - العمارنة، ذاق حلاوة الاستقلال توفي سنة 1980. أطلق عليه إسم بودلاعة لأنه كان يجيء الرسائل في " الدلاع " ويمر بالدوريات بدون إشارات تلك العساكر حتى أنه كان يعرض عليهم الأكل، عن بيليوغرافيا لمصلحة المحافظة على التراث التاريخي والتقاضي لسيدي بلعباس (غير منشورة).
- xiv - سي الخلاوي كان بتربة " ملازم أول " وكان المسؤول الأول لاعن سي مصطفى وكاتا مُجَّد في المنطقة الخامسة سيدي بلعباس.